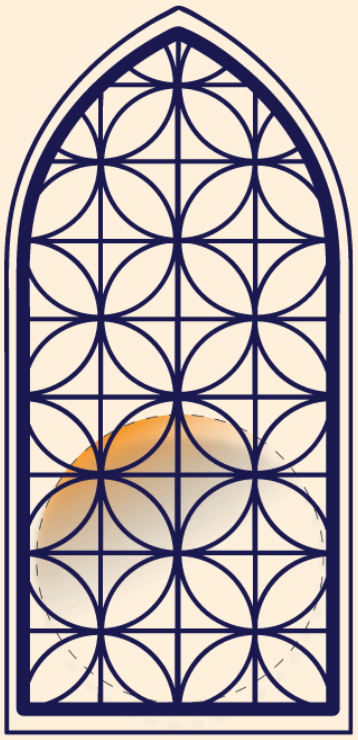

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الحادي عشر

الثلاثاء 11 رمضان 1443

سورة يونس الآيات (7 - 14)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا زلنا من فضل الله نجتمع على كتاب الله، ونتدارس في هذه الساعة التي نرجو أن يجعلها رب العالمين ثقيلة في الموازين يوم أن نلقاه، وأن تكون سببًا لفقهنا في الدين، وجمْع قلوبنا على الانتفاع من هذا الشهر (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ)[1] فيكون لنا زاد في كل العام، حتى نلقى شهرنا هذا من العام المقبل وقد ازددنا إيمانًا، أو نلقى ربنا وهو راضٍ عنا، نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممن انشغل بالآخرة فكانت هي أكبر همه ونسأله -سبحانه وتعالى- ألا يجعلنا ممن كانت الدنيا هي أكبر همه ومبلغ علمه، نعوذ بالله من الخذلان.

---

[1]() البقرة: 185.

هموم الإنسان هي الدالة على حقيقة حاله مع ربه، فلننظر همومنا ولنفحصها ولنطمئن أننا مشغولون بلقاء رب العالمين.

نقرأ اليوم آيات عظيمة من سورة يونس ونقف أمامها ونتأمل ما هي صفات الناجين وما هي صفات الخائبين، خصوصًا أن هذه السورة، وكل القرآن قول عجب، كما قالت الجن: (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)[2] هذه السورة عندما تقف أمامها وقفة تأمل تجد فيها أمر عجيب جدًا! وهو: الإشارة إلى الفرص وفواتها والفرص واغتنامها؛ لذلك في هذه السورة أتى مثل الحياة الدنيا، في هذه السورة أتى بيان أن هناك وقت للإيمان، فإذا فات هذا الوقت ما عاد يفيد الإيمان، ولا تفيد العودة للرحمن؛ لأنه -سبحانه وتعالى- جعل لكل عمل زمان؛ لذلك في هذه السورة تتكرر كلمة (آلْآنَ)؟ هناك أوان إذا فوته على نفسك فات عليك الفوز والفلاح، فما الذي يفوّت علينا زمن الفلاح؟

إنها الهموم والمشاغل، الهموم بمعنى الأمور التي تهتم بها وتشغلك وهي دائمًا على بالك، سيتبين لنا هذا من خلال ما يتيسر لنا من مدارسة في هذه الآيات البينات ونبتدئ إن شاء الله قراءة من الآية السابعة:

---

[2]() الجن: 1.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)).

هذه الآيات المباركات التي سمعناها فيها من الأمور العظام التي يجب أن نقف أمامها ونهتم بها ولا يكون مرورنا عليها مرورًا عابرًا، فنترك أمورًا فيصلية في حياتنا بتركنا التدبر لهذه الآيات، بل بتركنا التدبر للقرآن عمومًا، نترك ما أنزل رب العالمين ليكون هاديًا لنا إلى الطريق المستقيم، فنسال الله ألا يجعلنا من الغافلين، وأن يجعلنا المقبلين الصادقين في إقبالهم على رب العالمين، وعلى الصراط المستقيم.

نبدأ في بيان هذه الآيات التي أتت بعدما أخبر -سبحانه وتعالى- في مبدأ السورة عن الدلائل العظام الدالة على كماله وعظمته، وعلى أنه لا بد من معاد، ولا بد من حشر ونشر.

بعد هذه الدلائل بيّن أحوال الناس -سبحانه وتعالى- أمام هذه الآيات وأمام الانتفاع بها، فقال -عزّ وجلّ-:

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ) ودائما حين تجد اسم الموصول تعرف أن هذه صفة ثابتة لهؤلاء الموصوفين، صفة أصبحت طاغية عليهم فاشتهروا بها، فاسم الموصول حين يأتي في مثل هذه الأحوال يُعرف أن صاحب هذه الصفة موصوف بها.

وأتت أيضا (إنّ) الدالة على التأكيد، فهذا تأكيد على أن هذه صفتهم، اشتهروا بها.

فنرى كم صفة ذكرت في الآية، ونفهمها جيدًا لأن هذه الصفات هي التي يريد رب العالمين منا أن نتركها وألا تكون صفة من صفاتنا.

- الصفة الأولى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) هذه هي الصفة الأولى لهم.

وهذا معناه أن هؤلاء ليسوا مشغولين بالله ولا بمعرفة رب العالمين، نلاحظ (لِقَاءَنَا) لقاء رب العالمين، اللقاء العظيم

مطلقًا، هؤلاء لا يرجون اللقاء، يعني لا يطمعون ولا يفكرون، لا يرجون ولا يخافون هذا اللقاء، ليسوا في شوق إلى لقاء رب العالمين؛ لأنهم لا يعرفونه! فالإنسان لا يمكن أن يكون في حال من الشوق الذي فيه عاملين يدفعانه: الخوف والرجاء، يرجو أن يلقى الله وهو في أحسن حال، يخاف أن يفوته هذا اللقاء وهو في أحسن حال، يخاف ألا يكون في أحسن حال، هذه المشاعر دائمًا تدفع الإنسان إلى أن يجتهد.

لو تركنا الكلام عن هذا الأمر المهم وهو لقاء رب العالمين وتكلمنا عن الأمور الأسهل منها؛ ونعيشها في الحياة، هذا الإنسان عنده موعد مهم، لقاء مهم هو يرى أنه يحدد مصيره -كما يقولون- أو حتى عنده موعد لطائرة، فإن ليلة السفر الذي هو مشتاق إليه لا بد أن يتقلب بين أمرين؛ بين رجاء أن تكون هذه السفرة يسيرة وسهلة ويحقق فيها مراده، وبين خوف أن تكون عسيرة وصعبة، وأن يتعطل ولا يحصل مراده، لا يوجد أمر يهتم به الإنسان ويهتم بلقائه إلا وهو بين خائف وراجٍ. هنا (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ) حملت الخوف والرجاء.

لماذا لا يرجون لقاءنا؟

لأنهم لا يعرفون مَن هو الله، ولا يعرفون كيف سيكون حال الإنسان عندما يرضى عنه الله، فلا بد أن نعرف أن الإنسان لا يصل إلى أن يكون راجيًا للقاء الله إلا بعد أن يحصل له

معرفة الله، وكل يوم يزداد الإنسان فيه معرفة بالله هذا مؤذن لأن يشتاق الإنسان للقاء الله، ويرجو لقاء الله، ويخاف لقاء الله، ويحمل هم لقاء الله.

هذا الإنسان يكون في حال تيقّظ، يعرف الله ويرجو لقاء الله. لكن هؤلاء ليسوا في حال من التيقّظ (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) فلا يطمعون بلقاء الله ولا يخافون من لقاء الله، وهو أعظم وأوجب ما يكون من حال؛ أن يطمع الطامعين في لقاء رب العالمين، لكنهم ليسوا بهذا مشغولين ولا مهتمين. بماذا هم مهتمون؟

تأتي هنا الصفة الثانية من صفات الكفار، ومن صفات الغافلين عن الله، أو صفات المذمومين في هذا السياق لأنهم يمكن أن يكونوا الكفار ويمكن أن يكونوا المنافقين...

- الصفة الثانية: (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا).

الصفة الأولى أشارت إلى أن قلوبهم خالية من التلذذ بمعرفة الله ومن ثم الشوق إلى لقائه، فارغة من طلب هذا النوع من السعادة التي لا تنقطع؛ سعادة معية الله، سعادة أن يطمئن الإنسان فيعرف أنه في أي لحظة شعر بالخوف فزع إلى الله، في أي لحظة رغب في شيء سأل الله، في أي لحظة احتار في شيء استخار الله، في أي لحظة يحتاج أي حاجة الله ملك الملوك، رب الأرض والسماء معه، يسمعه ويراه، وإن كان

مؤمنًا تقيًا فهذا السمع يكون سمعًا خاصًا (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)[3].

فلاحظنا أن الصفة الأولى دلت على أن قلوبهم خالية من معرفة الله، فارغة من طلب هذا النوع من السعادة التي تحصل بالمعارف الربانية، أبدلوها بالصفة الثانية فاستغرقوا في طلب اللذات البدنية واكتفوا بها، فكانت هذه هي الصفة الثانية.

- الصفة الثالثة: (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا).

صفة السعداء أنهم عندما يذكرون الله توجل قلوبهم، قال تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)[4] ثم إذا قويت هذه المعرفة بالله وزادت، اطمأنت قلوبهم (وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[5] لكن صفة هؤلاء الأشقياء الغافلين أنهم اطمأنوا بالدنيا.

حقيقة الطمأنينة: أن يزول عن القلب الوجل والخوف، وأهل الإيمان يذكرون الله يقع في قلوبهم الخوف ثم بالله يخافون، منه يخافون وبه يطمئنون.

---

[3] () طه: 46.

[4] () الأنفال: 2.

[5] () الرعد: 28.

لكن هؤلاء رضوا بالحياة الدنيا وما فكروا بالحياة الأخرى (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) فإذا سمعوا الإنذار والتخويف عن الآخرة قلوبهم غير مشغولة بذلك ولم تخف ولم تطمئن.

وهذا أمر خطير، هؤلاء تسكن نفوسهم عندما يجدون دنياهم، فهؤلاء اطمأنوا بها وسكنت أنفسهم وصرفوا هممهم في تحصيل ما ينتفعون به في دنياهم، أما الآخرة فهي ليست موضوعهم.

- لذلك الصفة الرابعة: (وَالَّذِينَ هُمْ).

نلاحظ اسم الموصول مرة أخرى (عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) وصلوا إلى قمة المسألة وهي الغفلة! بحيث أن هؤلاء حالتهم على الدوام مشغولة بالدنيا، فلا آيات الله الكونية تلفت نظرهم، ولا آيات الله الشرعية تؤثر فيهم، يموت حولهم الخلق وهم يعتقدون أنهم خالدون! تزول الأموال واللذات عن الخلق وهم يعتقدون أن لذاتهم لا تزول وأن أموالهم باقية لهم! يمرض الخلق في أبدانهم ونفوسهم وهم يظنون أن هذا لا يأتي عليهم.

نلاحظ الاسم الموصول (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) هذه الغفلة أصبحت دأبهم وسجيتهم، فهم معرضين عن آيات الله، لا ينظرون لها بسبب انشغالهم بالدنيا، وإرادتهم إياها، لكن الغفلة التي تعرض على الإنسان أحيانًا في بعض الأوقات لا نستطيع أن نقول عن أصحابها (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) لأن هنا الكثير من المؤكدات والمبينات؛ (الذين) اسم موصول

يدل على أن هذه الصفة ثابتة لصاحبه، ثم (هم) تدل على أنهم رمز في الغفلة (عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ).

هؤلاء الذين هم غافلون هم (الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) فحصل لهم الإهمال للنظر في الآيات بسبب هذه الصفات.

ماذا سيكون حالهم بعد ذلك؟

ما داموا (رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) لا تسل عن حالهم في الآخرة:

(أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

هذه حالتهم؛ أن مأواهم المناسب لهم ومقرهم ومسكنهم المناسب لهم سيكون النار، بماذا؟ (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)، هم اعتقدوا أن الدنيا دار قرار، ورضوا بها عن الآخرة، رضوا أن يأخذوا في الدنيا مرادهم (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) وركنوا أن عندهم كذا وكذا من الأمور، إذًا هم في أحسن حال، وحصلوها بأي طريقة؛ حلال، حرام، لا يهمهم، ويصرفونها في أي شيء يخطر على بالهم، وجعلوا كل إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم للدنيا، فكأنهم خُلقوا للبقاء فيها وكأنها ليست دار ممر يتزودون منها للدار الآخرة، فكان المصير معلوم ما دامت الدنيا التي تشغلكم وتشغل بالكم وأنتم عليها مقبلون، وليس على الآخرة مقبلين (أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) يكسبون ما ذكرنا من الإقبال على الدنيا وترك الآخرة.

يقابل هؤلاء:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) لما ذكر أولئك القوم الغافلين، ذكر المتيقظين بنفس الطريقة، (إنّ) أداة التأكيد، (الذين) اسم الموصول الدال على أن هذه صفة دائمة لهم، عرفوا بها.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وهنا نجد أهمية الإيمان الذي يكون مكانه القلب، الإيمان بالله ولقاء الله، فنفهم من هذا أن هؤلاء صفاتهم خلاف صفات أولئك القوم، آمنوا بالله، عرفوا الله، وعرفوا كمال الله، وعرفوا سلطان الله، خافوا من الله، رجوا الله، حصل عندهم شوق لله، هذا كان إيمانًا في قلوبهم ثم أتى العمل في أبدانهم لأن الإيمان يلزمه العمل. فكمال قلوبهم بقوة عقيدتهم وكمال جوارحهم في فعل الخيرات والطاعات.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أشارت إلى ما في القلب من عقيدة في الله وفي عظمته وجلاله وفي لقاء الله وما يتبع ذلك من عقائد، هذه العقائد التي يجب أن تذكر دائمًا وينبه إليها ونراجعها؛ ماذا نعتقد في الله لكي نكون محسنين الظن بالله، مستعدين للقاء الله، متنبهين لهذا الأمر.

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إشارة إلى استخدام الجوارح الموهوبة في طاعة رب العالمين، فهؤلاء صدقوا بقلوبهم وحققوا تصديقهم بالعمل الصالح، في مقابل أن أولئك لا يرجون لقاء الله ولا يجدون في نفسهم إيمانًا بالله، ويقابل ذلك أن جوارحهم كلها مصروفة للدنيا، فرضوا بالحياة الدنيا ورضوا بمكاسبها (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) فبذلوا الجهد لها.

لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أمرهم مختلف. ماذا سيفعل لهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- ؟ (يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ) بسبب ما معهم من الإيمان يهديهم، وهنا يمكن أن يكون لكلمة (يهديهم) معانٍ:

من أولها وأهمها: يهديهم للنظر لآياته الكونية والشرعية فيزدادوا معرفة بالله.

يهديهم للأعمال الصالحة الناتجة عن العقائد السليمة، وهذا كله يجعلهم على الصراط المستقيم في هذه الدار، وفي تلك الدار عندما يلقون ربهم بسبب ما معهم من إيمان يثيبهم أعظم الثواب وينجيهم من العقاب وييسر لهم السير على الصراط كما يسر لهم السير على الصراط المستقيم في الدنيا، فهذا هو الجزاء.

أنت ابدأ مع الله «ومن تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقربْتُ منه ذراعًا»[6] نلاحظ الآية: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

---

[6]() أخرجه البخاري (7405).

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ) بسبب الإيمان الذي ابتدأت به الله يزيدك هداية للنظر في آياته الكونية والشرعية ويزيدك منة بأن يهديك لأعمال صالحة ثم في الآخرة أمر عظيم؛ يهديهم بالثواب الجزيل.

وقد وصف لهم رب العالمين هذا الثواب لتبقى النفوس في حال من الشوق إلى الله والشوق إلى جزائه -سبحانه وتعالى- فيهديهم إلى الجنة ثوابًا لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

(تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) فالمؤمن له نور يوم القيامة يسعى بين يديه يهتدي به إلى الجنة، والمؤمن عندما يصل إلى الجنة يهديه الله إلى مكان قصره وداره في تلك الجنة العظيمة من غير دليل! بمعنى أن الله -عزّ وجلّ-، كما في سورة محمد قال: (عَرَّفَهَا لَهُمْ)[7] بمعنى أن الإنسان من فضل الله -عزّ وجلّ-، عندما ينجو من النار ويدخل إلى الجنة -وهذا فضل الله- يجعل الله في قلبه معرفة لمكانه في الجنة فيهتدي إليها من دون أن يدله أحد فيعرفها أكثر مما يعرف داره في الدنيا، وهذا كله من نتائج الإيمان والعمل الصالح.

وهكذا نعرف أن العبد إذا تقرب إلى ربه شبرًا، بالإيمان والعمل الصالح، زاده الله فتوحًا وعطاء، فلا تبخل على نفسك في هذه الأيام المباركات، لا نبخل على أنفسنا بأن نغتنم كل

---

[7]() محمد: 6.

الفرص المتاحة ونجتهد غاية الاجتهاد لأن وراء ذلك جنات عرضها كعرض السماوات والأرض.

وانظر كيف يكون حال هؤلاء عندما يمنّ عليهم رب العالمين بأن يكونوا من سكّان هذه الجنات العظيمة التي تجري من تحتها الأنهار، جنات النعيم، ففيها النعيم التام؛ نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط بلقاه وقربه -سبحانه وتعالى-، ولقاء الأحبة، والتمتع بالاجتماع، هناك أمور لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد!

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) فهم قوم يشعرون بأن هذه عطايا من رب العالمين، وأنهم لم يحصلوا من الأعمال ما يوصلهم إلى هذه الدرجات لكنهم يعرفون رب الأرض والسماوات، فيقولون: (سبحانك اللهم وبحمدك) ما عاينا من السلامة عن الآفات والمخافات، إنما هو من فضلك علينا، نحن نعرف أن كل هذه الأحوال إنما تيسرت بإحسانك إلينا، وإفضالك وإنعامك، فسبحانك اللهم وبحمدك. دعواهم.

(دَعْوَاهُمْ) بمعنى: دعاؤهم، فهم يكونون في حال دعاء، حتى عندما يوفقون للوصول إلى الجنة يبقى هذا من النعيم. التكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، إنما بقي لهم أكمل

اللذات وهي ألذ عليهم من المآكل اللذيذة وهي ذكر الله الذي كانت نفوسهم تطمئن إليه وتفرح به في الدنيا، في الدنيا أهل الإيمان كانوا يطمئنون لذكر الله، ويفرحون به، في الجنة سيكون من ألذ الأشياء ذكر الله، وسيكون لهم بمنزلة النفَس من دون كلفة ولا مشقة.

وهذا كله يدل على أن من مُتِّع بمعرفة الله في الدنيا، هذا المتاع، وهو معرفة الله في الدنيا سيكون متاعًا عظيمًا في الآخرة، فيقولوا: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ).

وأما تحيتهم بعضهم لبعض، فهم يحيون بعض بأحسن تحية، عندما يفتتحون اللقاء مع بعض هناك كلمات تكرمة لبعض، عندما يلتقون لا يكون في التحية لغوًا ولا تأثيمًا إنما تحيتهم: (سلام) هذا السلام من أهل الجنة بعضهم على بعض، يدل على أن اسم الله العظيم **السلام** من الأسماء التي يجب أن تكون دائمًا على بالنا. في الدنيا نحن نسلم على الخلق فنسأل الله باسمه السلام أن يسلمهم، وعندما ننتهي من الصلاة نقول: (السلام عليكم) وعندما نبدأ في الأذكار بعد الصلاة نقول: (اللهم أنت السلام ومنك السلام) فيبقى اسم السلام اسمًا عظيمًا من أسماء الله، نسأل الله به دائمًا، إلى أن نصل إلى السلامة الكاملة في جنات النعيم! وفي الجنة ونحن مغتبطون بإذن الله، نحن وأحبابنا جميعًا، ونحن مغتبطون بالسلامة الكاملة وهي وصولنا إلى الجنة، بأمر الله وبفضل الله، نزداد طلبًا باسم الله السلام على أنه شكرا لله أن سلمنا (وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)،

(سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ)[8] فسلام أهل الجنة بعضهم على بعض، نسأل الله من فضله، شكرًا لله على تسليمه لأهل الجنة.

ثم نسمع: (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يختمون بذلك دعاءهم، يكررون (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) فإذا أرادوا الانتقال إلى حالة أخرى من أحوال النعيم، أنهوا دعاءهم الأول، جملة (الحمد لله رب العالمين) وهي كلمة من يستشعرها هنا في الدنيا يكون من أهل قولها في الآخرة. فتصور هؤلاء مجتمعين يتمتعون بذكر رب العالمين، ويتمتعون بما أعطاهم رب العالمين، ثم إذا أرادوا أن يتفرقوا حمدوا رب العالمين، ما أطيب حياة السلام التي تجمع بين الصفاء من الأكدار وبين النعيم الذي لا نهاية له، فكيف لا يقولون: (الحمد لله رب العالمين!)

فهنا معرفة رب العالمين وذكره في الدنيا نعيم، ومن ذاق هذا النعيم بإذن الله، وبأمر الله، وبفضل الله، يذوق نعيم الجنات وهو عارفًا لله، فتجده يقول، كما في الآية: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) تجدهم يحيون بعضهم: (السلام عليكم) تحية أهل الإسلام، الدعاء باسم الله السلام أن يسلمنا من كل شر في الدنيا، أما في الآخرة فهو ذكر أن سلامتنا هذه إنما هي من تسليم الله لنا، وآخر دعوانا بكل اجتماع، وبعد كل هناء: الحمد لله رب العالين، نقولها ونرددها في الدنيا حتى يكون نصيبنا في

---

[8]() يس: 58.

الآخرة أن نكون من هؤلاء القوم الذين ينهون مجالسهم بالحمد لله رب العالمين.

فلما أخبر -سبحانه وتعالى- عن هذه الأحوال وبيّن صفات أهل الغفلة وصفات أهل اليقظة ونظرهم للحياة، بيّن حال بعض الخلق الذين يتصرفون مع رب العالمين تصرف إنسان ما عنده يقين بأن الله منزه عن النقائص، ولا عنده يقين أن الدنيا دار اختبار.

أخبرنا -سبحانه تعالى- عن عقيدة أهل الجنة؛ أنهم آمنوا وعملوا الصاحات، وأنهم حتى وهم في الجنة ظهرت عقائدهم، يقولون: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) عقيدتهم أن الله منزه عن النقائص، لكن عقيدة أهل الباطل ظاهرة في هذه الآيات:

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

أنهم يستعجلون الله بالشر استعجالهم بالخير، هؤلاء صفتهم العجلة، وهي من أسوأ الصفات؛ أنهم متعجلون، إذا غضب أحدهم على أولاده أو على أهله ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا! أو يدعو على نفسه أو يتمنى الموت عندما تأتيه أي مشكلة أو يتمنى كذا وكذا من المصائب العظام وهذا كله يقابله حلم الله وحكمة الله؛ لذلك قال:

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

نلاحظ أن هؤلاء الناس هم الذين لا يرجون لقاء الله، لو عجل الله لهم الشر، الذي يستعجلونه عندما ييأسون من روح الله، أو عندما يعاندون الحق ويقولون: (لو كان ربنا موجودًا أو لو كان هذا حرامًا لأهلكنا ربنا!) وهذا من العقول الناقصة، أنهم يظنون أن الدنيا هنا دار جزاء، وأنهم بمجرد أن يعصوا الله ستنزل عليهم عقوبات. من قال لك إن الدنيا دار جزاء؟ الدنيا دار اختبار وابتلاء، وحين يكف الله عنكم آثار ذنوبكم ويكف عنكم بعض ما تدعون به في أوقات الشر أو نزول الشيء الذي لا يناسبكم، ذلك ليس لكرامة لكم لكن لأن الله حكيم عليم؛ لأن الله لو عجل للناس الشر كما يعطيهم الخير لمحقتهم العقوبة، لكن الله تعالى يمهلهم ولا يهملهم ويعفو عن كثير من حقوقه، فلا يؤاخذ الناس بظلمهم، بل يحلم عليهم، ولو أخذهم بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة؛ لذلك قال -عزّ وجلّ-: (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) لو عجل لهم الشر الذي يستعجلون به، والذي يستهينون هم به، (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) وانتهوا، أتظنون أن الله لا يقدر على ذلك؟ بل الله على كل شيء قدير. كيف نفهم الآية؟

ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم. والإنسان يستعجل الشر، كما قال

الله -عزّ وجلّ- في سورة الإسراء: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾[9].

لو أن الله -عزّ وجلّ- عجّل للناس هذا الشر الذي يتمنونه استعجالهم بالخير لحصل الهلاك، أيضًا يمكن أن تحصل العجلة من أهل الإيمان، ربما تمنوا نزول العذاب بالمشركين، واستبطؤوا مجيء النصر، أو ربما تمنى الإنسان الفرج واستبطأ انتظاره، وربما أيضًا عجب بعض الناس أن الله يرزق الكفار على ما هم عليه من حال، فهذه الآية جواب لكل هذه الإشكالات.

الله جعل حلمه سابق لغضبه، وجعل العالم كله مبني على الرفق، فقد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأمره ليس على عجل، والله -عزّ وجلّ- أوجد الخلق وجعل لهم وسائل للعيش وأمدهم بالنعم التي بها دوام الحياة، فحين تنظر للحياة تجد الخيرات مستفيضة على الخلق والشرور عارضة نادرة، وإنما تأتي هذه الشرور من عند أنفس الخلق، فلنفهم أن هذه الآية تدل على أن الرفق صفة من صفات الله، وأن رفقه مستمرًا على عباده غير منقطعًا عنهم؛ لأن الله أنشأ هذا العالم وهو عالم بأحوال خلقه وهو حليم ورفيق بهم، فالله لم يقدر الشر موازيًا للخير لطفًا منه ورفقًا، فالله لطيف بعباده وهو -سبحانه وتعالى- يمتن عليهم بذلك.

---

[9]() الإسراء: 11.

ولا تظن أبدًا أيها المؤمن أن كل من استحق العقوبة عجلها الله له، لو حصل هذا فسد الاختبار، ولعرف الناس أن هناك عقوبات يرونها رأي العين، فتحول من الإيمان بالغيب إلى الإيمان بالشهادة، هذا معنى عظيم في الآية يجب أن يكون في بالنا دائمًا؛ أن هذه الآية دليل على رفقه -سبحانه وتعالى- بخلقه.

ثم قال -عزّ وجلّ-: (فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) هذا المعنى، انتفاء أن يعجل الله للناس الشر بانتفاء لازم ذلك وهو بلوغ أجلهم، إذا انتفى التعجيل معناها أن رب العالمين يترك الذين لا يرجون لقاء الله في باطلهم يعمهون، يتركهم في مدة تأخير العذاب ولا يعجل عليهم، يتركهم علهم ينتفعون، فإذا لم ينتفعوا كانوا مستحقين للعقوبة.

هذه الآية معناها أن الله يترك هؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يستمرون في حالهم، ويعرض عليهم -سبحانه وتعالى- الإيمان بتكرار، ويعرض عليهم الآيات بتكرار، حتى ينتهي أجلهم وتنتهي فرصتهم، فمدّ لهم الله في الحياة علهم يخرجون منها بما ينفعهم.

ومن الأمور التي يجعلها الله سببًا لهدايتهم، لكن هم يقلبونها عليهم بدلًا من أن تكون لهم، ما أخبر به في الآية التالية:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وهو أنه -سبحانه وتعالى- يصيب الإنسان بالضر، فحين يصاب الإنسان بالضر يتصور الإنسان أن له ربًا يرفع عنه الضر بفطرته السوية، فإذا مس الإنسان الضر تحركت فيه الفطرة السوية، (دَعَانَا) لكشف أو إزالة هذا الضر، ويكون دعاءه مستمرًا في جنبه أو قاعدًا أو قائمًا، في كل أحواله، وألحّ في الدعاء ليكشف الله عنه الضر.

إلى هنا يعتبر منتفع من هذا الضر الذي أتاه، ويعتبر الضر بالنسبة له مخرجًا له من الغفلة التي هو فيها، وهذا من تدبير الله ليكون هذا الإنسان بعيدًا عن الغفلة، ربنا يجعله يقظًا، بعيدًا عن الغفلة بهذا، لكن هو ما يستمر بتركه للغفلة، ينقلب على عقبه!

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ) هذا الضر، (مَرَّ) مضى علّ طريقته الأولى نسي الضر ونسي كشف الله لهذا الضر فاستمر في غفلته معرضًا عن ربه كأن ما جاءه ضر وكشف الله عنه، (كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ) تصور أن رب العالمين يمدّ في حياة الخلق وينبههم هذ التنبيهات، ويبتليهم هذه الابتلاءات لتحصل منهم استفاقة، لكن هؤلاء زين لهم الشياطين أعمالهم.

(كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الإعراض عن الذكر ومن اتباع الشهوات ومن نسيان الحق، أليس الله قد عرضك لهذا الأمر لكي تستيقظ فيك فطرتك السليمة وتلتجئ إلى الله في هذه الشدة التي مرت عليك وأنت تعلم أنه لا يكشفها إلا الله! ما مر عليك هذا السوء إلا لتطرح عنك الغفلة وتستيقن بالحقيقة وتقبل على الإله الواحد الأحد. لكن النفوس المشتغلة بالدنيا الغافلة عن الآخرة، قال تعالى عنها: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) هؤلاء تمر عليهم المواقف ويعدون الله أن يستقيموا بعد أن يخرجوا من أزمتهم، ثم بسبب امتلائهم بالدنيا يعودون إلى غفلتهم، سبحان الله، (كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

لكن لو فكر الإنسان في الأمم الماضية لرأى عجبًا

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) المفترض أن ينظر الإنسان لمن كان قبله، ويرى كيف أهلك الله -عزّ وجلّ- الطاغين، الغافلين، الذين حين مكنهم رب العالمين في أي شيء ظنوا أنهم على كل شيء قادرون! ثم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. ما بالك لا تنظر في أحوال من كان قبلك، أين عقلك؟!

الله ذكرنا بعظيم قدرته بما وقع في الأقدمين لتحصل منا التقوى وليس تحصل منا الغفلة! ثم أنت بعد من أتيت؟

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

أيها العبد المؤمن أنت هنا في الدنيا لاختبار، الله مكّنك مما مكّنك منه، من كل هذه الحضارة ومن كل هذه القدرات ومن كل هذه التيسيرات لينظر كيف تعمل، فليكن هذا على بالك ولا تغفل عن ربك الناظر إليك، لا تكن ممن زين له سوء عمله، لا تكن من أولئك القوم الذين (رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) الذين لا يرجون لقاء رب العالمين، إن الله ينظر ما أنت فاعل، ما جعلك خليفة لمن قبلك إلا لينظر كيف تفعل، هذه علة إيجادك.

فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم أخرجنا من الغفلة واملأ قلوبنا باليقظة حتى نرى آياتك في هذا الكون وفي أنفسنا في الآيات المتلوة، نعرفك ونزداد يقينا بك، ونكون من المسبحين الحامدين الصادقين، الناجين يوم الدين، يا رب نحن وذريتنا ووالدينا ووالديهم والمسلمين، يا رب اجعلنا من الناجين يا رب العالمين، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.